روسيًا جاء وزميل له قبل شهور قليلة من وفاته، فأمر له بالطعام والشراب، فقامت زوجته بإعداد الطعام– وكنا في وقت متأخر من الليل– خرج الضيفان لتناول الطعام وسرعان ما عادا مغاضبين، فسألهما الدكتور: لِمَ لَمْ تأكلا؟! فقال أحدهم بلغة متكسِّرة: أستاذ هذا جُبْن، بيض، بطاطس، فقط! لا توجد لحوم، أسماك، أرز، شوربة؟

كان محمد الحداد يراقب ما حدَث وقد احمرَّ وجهُهُ واكفهرَّ..

انتفض الدكتور حينها.. نادىٰ زوجته يوبِّخها، فتدخلتُ، وقد بلغ بي الغضب مداه.

- يا أستاذنا، الساعة الآن الحادية عشرة مساءً ونحن في الشتاء، وهي منتصبة علىٰ قدميها مُذ أصبحنا.. وليس لها من عمل إلا إعداد الطعام للداخل والخارج، وهذا أمرٌ لا يُطاق.. والآن من حقها أن تخلد إلىٰ الراحة لا أن تُعيد الطبخ من جديد.

- يا أخي أنت دائمًا تدافع عنها بالحق وبالباطل.

- أليس هذا بالحق؟!

هزَّ رأسه مرارًا في حركة مِن أعلىٰ إلىٰ أسفل، ومط شفتيه ثم قال:

- بلىٰ.

أصحابُ علي

«فهل رأيتم دينًا وحضارة علىٰ هذا المستوىٰ من تقدير الحياة والإنسان؟!»

كان عليّ أن أخضع لاختباراتٍ عدةٍ قبل أنْ يوليني الرجل ثقته، ولِمَ لا؟!

أغضبني هذا الأمر في نفسي كثيرًا، بيد أنِّي التمستُ له العذر، فالرجل لم تكن له بي سابقة معرفة، وأنا أسعىٰ حثيثًا إلىٰ الجلوس بين يديه والتعلم منه، ونسيان حظ نفسي من مُتع الدنيا التي يطيبُ بها أقراني...

ظللت رفيقا له في السنوات العشر الأخيرة من عمره بشكل دائم، ولم يخفف عني هذا الأمر في السني الأخيرة سوىٰ وجود الصديق محمد الحداد الذي قام بين يدي شيخنا بإخلاص، يتولىٰ قضاء كل حاجاته، كبيرها ودقيقها، بدءًا من أعمال السكرتارية وحتىٰ تطبيبه، والإشراف علىٰ علاجه في مرضه، لا سيما في ظل غياب أبنائه، فأحمد في بعثة علمية بالولايات المتحدة الأمريكية للحصول علىٰ الدكتوراه، وأنس مشغولٌ هو الآخر برسالته، فضلا عن عمله في مركز البحوث الزراعية بالمنصورة، الأمر الذي أوجب علىٰ الأخير الإقامة في المحلة الكبرىٰ.

باختصار شديد: اختبرَني الرجل حتىٰ خَبرَني.

كثيرًا.. كان يتركني بمفردي في بيته عند عدم تواجد زوجته لساعات طوال ثم يعود.

صِرْتُ أقيمُ معه أكثر ما أُقيمُ مع أبي، وأصحبُهُ في حِلِّهِ وتِرْحالِهِ، وبدوه وخفائه...

نزلتُ منه منزلة المُريد من شيخِهِ

***

وإن أَنْس ما حييت لا أَنْسىٰ مهاتفته إياي طالبًا الحضور في ساعة يُحدِّدها، وليس ثمة مجال للتأخر بأي شكل، ثم يُصدر فرمانًا بالمجيء في «تاكسي» لا في سيارة أجرة، علىٰ أن يتكلَّف هو أجر ذلك، وقبل الموعد المتوافق عليه أكون أمام الباب، فيهشّ كثيرًا، ثم يشرع في دفع المبلغ، فأفاجئه بقولي: ولكني ركبتُ (السيارة) ، خرجتُ مبكرًا من العمل، ووجدتُ فُسحةً من الوقت.

والفِكَاك منه أمرٌ عسير، ولو سوَّلت لك نفسك الاعتذار يومًا فستخضع لاختبار عصبي رهيب، وليس أمامك عندها إلا أن تسبك من وحي الخيال حكاية، لائذا بمعصم الثبات الانفعالي..

كان ذا قدرة علىٰ الاستدراج لا حدود لها، وليس من الهيِّن أن تقول له مثلا: رايح أتفسح مع حد من أصحابي، أو أزور شخصًا...إلخ! ومن ثَمَّ كنت أُضطر إلىٰ الكذب في بعض الأحيان- سامحني الله وسامحه- بسبب ديكتاتوريته العادلة الرحيمة.

لم يكن ليرضىٰ بالبديل، فإن قلت له: الدكتور يحيىٰ سيكون موجودًا، أو الدكتور القرش أو أصحاب عليّ، فلن يتركك وشأنك...

وها نحن تلاميذه في جمع غفير، قعودا بين يديه، فلا يأذن لأحدنا بالخروج، وندور بين يديه كأننا خلية نحل، فبإمكانه تشغيل عشرة في وقت واحد بحيث لا يغفل عن أحدٍ منَّا.. ينظر من أسفل نظارته الطبية السميكة فلا ندري إلىٰ أيِّنا ينظرُ!

كان المطبخ المتنفس الوحيد لبعض الأصدقاء.. بعيدًا عن الرقابة (المولوية)

***

أما عن عدائه للتلفاز فحدِّث ولا حرَج، فلم يكن مسموحًا بمشاهدة أي برنامج، ولو نشرة أخبار، فقط يكتفي بتصفح سريع لبعض الجرائد، أو يطلب من جليسه ملخصًا بأهم الأحداث الداخلية والخارجية.

كنتُ أتلصَّص ومعي الحداد لمشاهدة الدقائق الأخيرة من مباراة مهمة للمنتخب أو الأهلي- أيام كنا نشجع الكرة- فإذا أحسسنا به مقبلا تظاهرنا بالعمل.

ذهبنا مرةً إلىٰ نادي الصحفيين علىٰ النيل، وكانت المباراة علىٰ أشُدِّها بين فرنسا وفريق آخر لست أذكره.. حرصتُ عندها أن يجلس وظهره للشاشة بينما أجلسُ في مقابلها.

لم تمر لحظات حتىٰ أدرك انشغالي بالمباراة بعد أن تشابهت ردودي في النقاش: «تمام»، «طبعًا»، «أكيد»، «فعلا»...وعندها تحطمت آمالي في اختلاس المشاهدة بعد أن أصدر فرمانًا ساميًّا باستبدال المقاعد...

سامحه الله.

كان زينُ الدين زيدان متألقًا.. حتىٰ كاد عصام الشوالي أن يُجنَّ من فرط مهاراته!

***

واستعانته ببعض الطلاب الوافدين في السفر والتنقل داخل القاهرة وقضاء بعض حاجياته واسعة وملُفتة في ذات الوقت.

أراد أحد أحبابه- وهو رجل أعمال معروف- دعوة الدكتور تبرُّكا به وتشرُّفًا، فلما وافق طلب منه الرجل اصطحاب مَنْ شاء من مريديه، فقال له: إن شاء الله سآتي ومعي أصحاب علي.

أعدَّ الرجلُ وليمةً كبيرة تليق بالدكتور وتلاميذه، فلما كانت الساعة المرتقبة تفاجأ الرجل بحضور الدكتور ومعه شخص واحد.

سأله الرجل بدهشة:

- أين بقية الضيوف؟!

- لا أحد معي سوىٰ هذا وأشار إلىٰ مرافِقِه! قال الرجل متعجبا: ولكن أين علي؟! وأين أصحابه؟!

- أحسبت أنني سآتيك بشيعة الإمام علي يا أخي؟!

ضحك حتىٰ بلغ السعال منه مبلغه، وكانت تلك عادته، فلم يكن (أصحاب علي) إلا طالبًا واحدًا من (داغستان) سُمي بهذا الاسم المركب علىٰ عادةٍ في بلادهم!

***

حاز الدكتور كثيرًا من المشتركات بينه وبين كل أبناء الفكرة الإسلامية، فكان أن تنازع وصله الإخوة الفرقاء، ومالت إليه حمائم الولاء، وتداعىٰ اسمه هنا وهناك.

الإخوان يرون نسبه بهم كونه واحدًا من تلامذة الشيخ محمد الغزالي والأستاذ عمر التلمساني.

الصوفيون يرونه وليًّا لعلاقته بالشيخ عبد السلام أبو الفضل الذي ربَّاه علىٰ يديه، وكذلك التبليغ، والجمعية الشرعية، يقدرون الرجل ويعدونه منهم.

ما زلت أذكر يوم أن دُعي إلىٰ إلقاء محاضرة علمية ضمن الموسم الثقافي لمسجد العزيز بالله بمنطقة الزيتون بالقاهرة، وهو معقل جماعة أنصار السنة المحمدية.

طلب مني مرافقته، فقلت مازحًا: يا مولانا أنت بلا لحية، ولكن يشفع لك أنك دُعيت، أما أنا فلحيتي (تايواني) تظهر علىٰ استحياء، ولا تسرّ الناظرين هناك، فاذهب وحدك؛ وسآتي إليك في المنزل عقب الدرس..

لم يكن هناك بُدٌّ من الذهاب بسيارته التي ربطت بالمودة طلبة العلم والمعرفة من محبي الرجل.. ودخلنا إلىٰ الشارع بصعوبة وسط الأعداد الغفيرة المحتشدة.

ولأن مظهرنا كان مختلفًا قياسًا بالآخرين فلم يكترث بنا أحد، علىٰ عكس ما يلقاه في أي مكان نذهب إليه.. مِلتُ إليه وهمست في أذنه

باسمًا: ألم أقل لك يا مولانا؟!

بانتظارنا.. كان الدكتور جمال المراكبي- الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية وقتها- تلقانا بترحاب شديد، وظللنا في الغرفة حتىٰ حان موعد المحاضرة.

استندت إلىٰ أحد عُمُد المسجد في مواجهة المنصة التي لم تكن سوىٰ منضدة.. وتسرب إلىٰ سمعي هذا الحديثُ الخافت بين شابين صغيرين:

- وده مين إن شاء الله؟!

- مش عارف!

- جايبين واحد حَليق يِدِّينا محاضرة؟!

- خلينا نسمع يا شيخ.

لم أشأ أن أُحرج الشابين وتركتهما لما بعد المحاضرة.

بدأ عويس حديثه بمقولته المعهودة التي لم يَحِدْ عنها قط «الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ إمام حضارة المسلمين، سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين».. ثم زاد قائلًا: وأبدأ بما كان يبدأ به شيخي ومعلمي الشيخ محمد الغزالي...».

لم يكد يذكر اسم الشيخ حتىٰ تذمَّر بعض الحاضرين، وسرت همهمات وحوقلات لا تكاد تُسمع، فالغزالي لديهم من المبتدعة الذين غيروا في الدين وبدلوا، فضلا عن أنهم لم يسلموا من قلمه ولسانه.

واصل مولانا كلامه بمقولة للشيخ وفحواها أنه لا يُشبِّهُ، ولا

يُجسِّد، ولا يُعطِّلُ.. هنا سرت حماسةٌ شديدةٌ بين الحاضرين وأعاروه آذانهم بشكلٍ مُلفتٍ..فلقد أثبتَ الرجل أنه سلفيٌ أصيلٌ.

تكلم مولانا، وصالَ وجَالَ، وطوَّف وحَوَّم، وجلسَ الناس بداخل المسجد وخارجه كأنَّ علىٰ رؤوسهم الطير، كانوا منتبهين رغم حرارة الصيف التي لم تُفلح معها المراوح الدائرة ببطءٍ مُرهقٍ.. كما لم تُجْد نفعًا معها المبرداتُ!

كان الرجل يسبح في التاريخ بمهارة فائقة، ويستحضر شخصيات مجهولة للحاضرين وأنا منهم، ويخوض دروبًا في التاريخ مهجورة، ويُورد شواردَ يقف الذهنُ أمامها حائرًا، ولا عجب في ذلك؛ فمولانا يجمع بين التاريخ وفلسفة التاريخ في مزاوجة لا تنفصم.

ظلَّ الرجل هكذا حتىٰ انتهىٰ الوقت المخصص له؛ فمنحه الدكتور المراكبي عشر دقائق إضافية.

استنفذها فتعالت الصيحات مطالبةً بأن يُكمل حديثه.. وتكرر الأمر مرتين حتىٰ إذا كانت الثالثة ردَّ الدكتور المراكبي حاسمًا بالرفض؛ لأن هناك متحدِّثٌ آخر بعد الدكتور.

وعدهم المراكبي باستكتاب الرجل في مجلة (التوحيد) لسان حال الجماعة، وهو الأمر الذي رحَّب به الدكتور. والحقيقة أنهم لم يتواصلوا معه بعد ذلك، ولم يتواصل معهم، ولو قُدِّر له أن يكتب في مجلتهم لكان خيرًا لهم وأشد تنويرًا.

انتهت المحاضرة، وفوجئتُ بالجموع تهدر من الداخل والخارج، الكل يريد أن يصافح الرجل، بل رأيتُ من يُسارع إلىٰ تقبيل يده،

وآخرين يسألونه عن أهم كتب التاريخ التي يجب عليهم أن يقرأوها.

اجتهدتُ في البحث عن الشابين الصغيرين اللذين كانا بجانبي،

ألفيتهما منشرحي الفؤاد بحديث الرجل، فبادرت صاحبنا قائلا: «لم أُشأ أن أَردَّ عليك ما قلتَه عن الشيخ في حينه، وتركتك لعلمي بقدر الرجل، وليقيني أنه سيأسرك كما يأسر الآخرين، ولكن لابد لك من التعلم أن الحكم علىٰ الشيء فرعٌ عن تصوره؛ فلا تجعل المظاهر تخدعك، ولا تجعل اللحية مقياسًا لدين أحدٍ»..

اعتذر الشاب بأدبٍ جمٍّ.. وانصرفتُ مع الدكتور، فقصصتُ عليه ما كان من أمر الشاب، فضحك ملء وجهه.. وطافت معنا السيارة في شوارع القاهرة الحميمة نتحدث عن ترشيد الصحوة الإسلامية ومعالجة أخطائها..

الكثيرةُ.. والجمَّة..

لكن.. من يسمع.. ومن يعتبر؟!

البحث عن إنسان

«وأعطينا الإسلام فتات أموالنا وجهودنا، وخدعنا أنفسنا ببعض النوافل، وانفصلنا عن أسلافنا الذين تعاملوا مع الإسلام بالعقل والقلب والوجدان كله»

عبثًا حاول مولانا إقناعي بشراء الهاتف الجوَّال الذي أصبح أمرًا لازمًا بعد أن كان من الكماليات، لكني كنت حسمت أمري ألا يكون لي جوَّال ما حييت، متمثلا في ذلك مذهب الدكتور أحمد كمال أبو المجد الذي سألته مرة عن أرقام هواتفه فأعطاني إياها ممتنًا، وليس من بينها رقم جوَّال، فلما سألته عن ذلك قال:

«لا أحمله، فالشيطان ينصرف بالاستعاذة منه، أما هذا الجهاز فلن تُجدي معه الاستعاذة ولا الأدعية المأثورة والمنثورة».

زد علىٰ هذا أن معظم معارفي لم يكونوا يحملونه حينها إلا لداعي التباهي والمَنْظَرة، ناهيك عن الرنات التي لا تكف.

رنات فقط! والويل لمن يفكر في فتح الخط علىٰ الآخر.. فعندئذ وقعت الواقعة.

كان اقتنائي للجوَّال يعني بقائي أسيرًا لمولاي طيلة الوقت، فما أيسر الهروب من الهاتف المنزلي عند تعكر مزاجي دون أية تبعة عليَّ، لكن وجود هذا الجهاز يعني أنه سيتصل بي حتىٰ أقرب الآجال: أن أَرُدَّ، أو تفصل البطارية، أو يفصل الله بيننا!